بعض الصالحات وكانت في هيئة رثة: ألست على الإسلام وهو العز الذي لا ذل معه، والغني الذي لا فقر معه. وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنّ رجلاً قال له: إنّ الناس يزعمون أنّ فيك تيهًا، قال: ليس بتيه، ولكنه عزة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾.

وتلا هذه الآية: **﴿لا تلهكم﴾** تشغلكم **﴿اموالكم﴾** والتصرف فيها والسعي في تدبير أمرها، والتهالك على طلب النماء فيها بالتجارة والاغتلال وابتغاء النتاج والتلذذ بها والاستمتاع بمنافعها. **﴿ولا اولادكم﴾** وسروركم بهم وشفقتكم عليهم والقيام بمؤنهم وتسوية ما يصلحهم من معايشهم في حياتكم وبعد مماتكم، وقد عرفتم قدر منفعة الأموال والأولاد، وأنه أهون شيء وأدونه في جنب ما عند الله **﴿عن ذكر الله﴾** وإيثاره عليها **﴿ومن يفعل ذلك﴾** يريد الشغل بالدنيا عن الدين **﴿فاولئك هم الخاسرون﴾** في تجارتهم حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني وقيل: ذكر الله الصلوات الخمس وعن الحسن: جميع الفرائض. كأنه قال: عن طاعة الله وقيل: القرآن. وعن الكلبي: الجهاد مع رسول الله ﷺ. من في.

وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾.

من في **﴿مما رزقناكم﴾** للتبعيض والمراد الإنفاق الواجب **﴿من قبل أن ياتي احدكم الموت﴾** من قبل أن يرى دلائل الموت ويعاين ما ييأس معه من الإمهال ويضيق به الخناق ويتعذر عليه الانفاق ويفوت وقت القبول فيتحسر على المنع ويعضّ أنامله على فقد ما كان متمكنًا منه، وعن ابن عباس رضي الله عنه: تصدقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت فلا تقبل توبة ولا ينفع عمل. وعنه: ما يمنع أحدكم إذا كان له مال أن يزكي، وإذا أطاق الحج أن يحج من قبل أن يأتيه الموت فيسأل ربه الكرة فلا يعطاها. وعنه أنها نزلت في مانعي الزكاة ووالله لو رأى خيرًا لما سأل الرجعة، فقيل له: أما تتقي الله يسأل المؤمنون الكرة. قال: نعم أنا أقرأ عليكم به قرآنًا يعني: أنها نزلت في المؤمنين وهم المخاطبون بها. وكذا عن الحسن: ما من أحد لم يزك ولم يصم ولم يحج إلا سأل الرجعة، وعن عكرمة أنها نزلت في أهل القبلة **﴿لولا اخرتني﴾** وقرئ: أخرتن، يريد هلا أخرت موتي **﴿إلى أجل قريب﴾** إلى زمان قليل **﴿فاصدق﴾** وقرأ أبي فأتصدق على الأصل. وقرئ: وأكن عطفًا على محل فأصدق كأنه قيل: إن أخرتني أصدق وأكن. ومن قرأ وأكون على النصب فعلى اللفظ. وقرأ عبيد بن عمير: وأكون على، وأنا أكون عدة منه بالصلاح.

وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾.

﴿ولن يؤخر الله﴾ نفى للتأخير على وجه التأكيد الذي معناه: منافاة المنفى الحكمة، والمعنى: أنكم إذا علمتم أنّ تأخير الموت عن وقته مما لا سبيل إليه وأنه هاجم لا محالة وأنّ الله عليم بأعمالكم فمجاز عليها من منع واجب وغيره لم تبق إلا المسارعة إلى الخروج عن عهدة الواجبات والاستعداد للقاء الله، وقرئ: تعملون بالتاء والياء. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المنافقين بريء من النفاق»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة التغابن مدنية

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾.

قدم الظرفان ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله عز وجل، وذلك لأنّ الملك على الحقيقة له لأنه مبدئ كل شيء ومبدعه والقائم به والمهيمن عليه. وكذلك الحمد لأنّ أصول النعم وفروعها منه، وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء وحمده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾.

﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ يعني: فمنكم آتٍ بالكفر وفاعل له ومنكم آتٍ بالإيمان[2] وفاعل له. كقوله تعالى: ﴿وجعلنا في ذريتهما النبوّة والكتاب، فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون﴾[3] والدليل عليه قوله تعالى:

---

(1) رواه الثعلبي والواحدي وابن مردويه في تفاسيرهم والزيلعي 4/ 37.

(2) قال أحمد: لقد ركب عمياء وخبط خبط عشواء، واقتحم وعراً السالك فيه هالك والغابر فيه عائر، وإنما ينصب إلى مهاوي الأراك ويحوم حول مراتع الإشراك، ويبحث ولكن على حتفه بظلفه ويتحتف، وما هو إلا يتشدق ويتحقق وما هو إلا يتفسق، وهب أنه أعرض عن الأدلة العقلية والنصوص النقلية المتظافرة على أن الله تعالى خالق كل شيء، واطرد له في الشاهد ما ادعاه ومن مذهبه قياس الغائب على الشاهد، قد التجأ إلى الاعتراف بأن الله خالق = العبد الفاعل للقبيح، وأن خلق العبد الفاعل للقبيح بمثابة إعطاء السيف الباتر للرجل الفاجر، وأن هذا قبيح شاهداً، ولا يلزم أن يكون مثله قبيحاً في خلق الله تعالى، أفلا يجوز أن يكون منطوياً على حكمة استأثر الله تعالى بعلمها، فما يؤمنه من دعوى أن أفعال العبد وإن استقبحها العقلاء مخلوقة لله تعالى، وفي خلقها حكمة استأثر الله بعلمها، وهل الفرق إذاً إلا عين التحكم ونفس اتباع الهوى هذا، ودون تمكنه من اتباع هذه القواعد أن يمكن من القتاد اختراط، ومن الجمل أن يلج في سم الخياط.

(3) سورة الحديد، الآية: 26.

﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي: عالم بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم. والمعنى: هو الذي تفضل عليكم بأصل النعم الذي هو الخلق والإيجاد عن العدم فكان يجب أن تنظروا النظر الصحيح وتكونوا بأجمعكم عبادًا شاكرين، فما فعلتم مع تمكنكم بل تشعبتم شعبًا وتفرقتم أممًا فمنكم كافر ومنكم مؤمن. وقدم الكفر لأنه الأغلب عليهم والأكثر فيهم، وقيل: هو الذي خلقكم فمنكم كافر بالخلق وهم الدهرية ومنكم مؤمن به.

فإن قُلْتَ: نعم إن العباد هم الفاعلون للكفر، ولكن قد سبق في علم الحكيم انه إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر ولم يختاروا غيره فما دعاه إلى خلقهم مع علمه بما يكون منهم، وهل خلق القبيح وخلق فاعل القبيح إلا واحد؟ وهل مثله إلا مثل من وهب سيفًا باترًا لمن شهر بقطع السبيل وقتل النفس المحرّمة فقتل به مؤمنًا. اما يطبق العقلاء على ذم الواهب وتعنيفه والدق في فروته كما يذمون القاتل بل إنحاؤهم باللوائم على الواهب اشد! قُلْتُ: قد علما انّ الله حكيم عالم بقبح القبيح عالم بغناه عنه، فقد علمنا انّ أفعاله كلها حسنة وخلق فاعل القبيح فعله فوجب أن يكون حسنًا وأن يكون له وجه حسن وخفاء وجه الحسن علينا لا يقدح في حسنه كما لا يقدح في حسن اكثر مخلوقاته جهلنا بداعي الحكمة إلى خلقها.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾.

﴿بالحق﴾ بالغرض الصحيح والحكمة البالغة وهو أن جعلها مقار المكلفين ليعملوا فيجازيهم. ﴿وصوّركم فاحسن صوركم﴾ وقرئ: صوركم بالكسر لتشكروا. وإليه مصيركم فجزاؤكم على الشكر والتفريط فيه.

فإن قُلْتَ: كيف احسن صورهم؟ قُلْتُ: جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاه بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور ومن حسن صورته انه خلق منتصبًا غير منكب، كما قال عز وجل: ﴿في احسن تقويم﴾.

فإن قُلْتَ: فكم من دميم مشوّه الصورة سمج الخلقة تقتحمه العيون! قُلْتُ: لا سماجة ثم ولكن الحسن كغيره من المعاني على طبقات ومراتب. فلانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاط بينًا وإضافتها إلى الموفى عليها لا تستملح وإلا فهي داخلة في حيز الحسن غير خارجة عن حدّه. الا ترى انك قد تعجب بصورة وتستملحها ولا ترى الدنيا بها، ثم ترى أملح وأعلى في مراتب الحسن منها فينبو عن الأولى طرفك وتستثقل النظر إليها بعد افتتانك بها وتهالكك عليها وقالت الحكماء: شيئان لا غاية لهما: الجمال والبيان. نبّه بعلمه ما في السموات والارض.

يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾.

ثم يعلمه ما يسره العباد ويعلنونه، ثم يعلمه نوات الصدور انّ شيئًا من الكليات والجزئيات غير خافٍ عليه ولا عازب عنه. فحقه أن يتقي ويحذر ولا يجترأ على شيء مما يخالف رضاه، وتكرير العلم في معنى تكرير الوعيد، وكل ما نكره بعد قوله تعالى: ﴿فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾[1] كما ترى في معنى الوعيد على الكفر، وإنكار أن يعصي الخالق ولا تشكر نعمته. فما أجهل من يمزج الكفر بالخلق ويجعله من جملته، والخلق أعظم نعمة من الله على عباده، والكفر أعظم كفران من العباد لربهم.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾.

﴿الم ياتكم﴾ الخطاب لكفار مكة.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾.

﴿ونلك﴾ إشارة إلى ما نكر من الوبال الذي ذاقوه في الدنيا وما أعدّ لهم من العذاب في الآخرة ﴿بانه﴾ بانّ الشان والحديث ﴿كانت تاتيهم رسلهم. ابشر يهدوننا﴾ انكروا أن تكون الرسل بشرًا ولم ينكروا أن يكون الله حجرًا ﴿واستغنى الله﴾ أطلق ليتناول كل شيء ومن جملته إيمانهم وطاعتهم.

فإن قُلْتَ: قوله: ﴿وتولوا واستغنى الله﴾ يوهم وجود التولي والاستغناء معًا[2]. والله تعالى لم يزل غنيًا! قُلْتُ: معناه: وظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ولم يضطرّهم إليه مع قدرته على نلك.

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾.

الزعم ادّعاء العلم ومنه قوله عليه السلام: «زعموا مطية الكنب وعن شريح لكل شيء كنية وكنية الكنب، زعموا»[3] ويتعدّى إلى المفعولين تعدّي العلم قال:

ولم أزعمك عن ذاك معزلاً — وإن مع ما في حيزه قائم مقامهما

والذين كفروا أهل مكة و﴿بلى﴾ إثبات لما بعد لن وهو البعث ﴿ونلك على الله يسير﴾ أي: لا يصرفه

(1) سورة التغابن، الآية: 2.

(2) قال أحمد: إنما الحق انه لم يخلق لهم إيماناً ولا قدرة عليه، فكان قادراً أن يخلق لهم الإيمان والقدرة عليه، وإنما حرّفها الزمخشري إلى قاعدته.

(3) قال الزيلعي بهذا اللفظ 3/41.

obeikandi.com

عنه صارف.

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

وعنى برسوله والنور محمدًا ﷺ والقرآن.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾.

وقرئ: نجمعكم ونكفر وندخله بالياء والنون.

فإن **قُلْتَ**: بم انتصب الظرف؟ **قُلْتُ**: بقوله: لتنبؤن أو بخبير، لما فيه من معنى الوعيد، كأنه قيل: والله معاقبكم يوم يجمعكم أو بإضمار اذكر ﴿**ليوم الجمع**﴾ ليوم يجمع فيه الأوّلون والآخرون. التغابن مستعار من تغابن القوم في التجارة، وهو أن يغبن بعضهم بعضًا لنزول السعداء منازل الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ونزول الأشقياء منازل السعداء التي كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء، وفيه تهكم بالأشقياء لأنّ نزولهم ليس بغبن، وفي حديث رسول الله ﷺ: «ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرًا وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة»[1]. ومعنى ﴿**ذلك يوم التغابن**﴾ وقد يتغابن الناس في غير ذلك اليوم استعظام له وأن تغابنه هو التغابن في الحقيقة لا التغابن في أمور الدنيا. وإن جلت وعظمت ﴿**صالحًا**﴾ صفة للمصدر أي: عملاً صالحًا.

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿**إلا بإذن الله**﴾ إلا بتقديره ومشيئته كأنه أذن للمصيبة أن تصيبه ﴿**يهد قلبه**﴾ يلطف به ويشرحه للازدياد من الطاعة والخير. وقيل: هو الاسترجاع عند المصيبة، وعن الضحاك: يهد قلبه حتى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعن مجاهد: إن ابتلى صبر وإن أعطى شكر وإن ظلم غفر. وقرئ: يهد قلبه على البناء للمفعول والقلب مرفوع أو منصوب ووجه النصب أن يكون مثل سفه نفسه أي: يهد في قلبه. ويجوز أن يكون المعنى: أنّ الكافر ضال عن قلبه بعيد منه والمؤمن واجد له مهتدٍ إليه كقوله تعالى: ﴿لمن كان له قلب﴾. وقرئ: نهد قلبه بالنون. ويهدّ قلبه بمعنى: يهتد، ويهدأ قلبه يطمئن، ويهد ويهدأ على التخفيف ﴿**والله بكل شيء عليم**﴾ يعلم ما يؤثر فيه اللطف من القلوب مما لا يؤثر فيه فيمنحه ويمنعه.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿**فإن توليتم**﴾ فلا عليه إذا توليتم لأنه لم يكتب عليه طاعتكم إنما كتب عليه أن يبلغ ويبين فحسب.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ بعث لرسول الله ﷺ على التوكل عليه والتقوّي به في أمره حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه. إنّ من الأزواج أزواجًا يعادين بعولتهنّ ويخاصمنهم ويجلبن عليهم، ومن الأولاد أولادًا يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الغصص والأذى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿**فاحذروهم**﴾ الضمير للعدوّ أو للأزواج والأولاد جميعًا أي: لما علمتم أن هؤلاء لا يخلون من عدوّ فكونوا منهم على حذر ولا تأمنوا غوائلهم وشرهم ﴿**وإن تعفوا**﴾ عنهم إذا طلعتم منهم على عداوة ولم تقابلوهم بمثلها فإنّ الله يغفر لكم ذنوبكم ويكفر عنكم. وقيل: إنّ ناسًا أرادوا الهجرة عن مكة فثبطهم أزواجهم وأولادهم وقالوا: تنطلقون وتضيعوننا. فرقوا لهم ووقفوا، فلما هاجروا بعد ذلك ورأوا الذين سبقوهم قد فقهوا في الدين أرادوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم فزين لهم العفو، وقيل: قالوا لهم: أين تذهبون وتدعون بلدكم وعشيرتكم وأموالكم؟ فغضبوا عليهم وقالوا: لئن جمعنا الله في دار الهجرة لم نصبكم بخير. فلما هاجروا منعوهم الخير فحثوا أن يعفوا عنهم ويردّوا إليهم البر والصلة. وقيل: كان عوف بن مالك الأشجعي ذا أهل وولد، فإذا أراد أن يغزو وتعلقوا به وبكوا إليه ورققوه، فكأنه هم بأذاهم فنزلت.

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿**فتنة**﴾ بلاء ومحنة لأنهم يوقعون في الإثم والعقوبة ولا بلاء أعظم منهما ألا ترى إلى قوله: ﴿**والله عنده أجر عظيم**﴾ وفي الحديث يؤتى برجل يوم القيامة فيقال: «أكل عياله حسناته»[2]. وعن بعض السلف العيال سوس

---

(1) أخرجه البخاري عن أبي هريرة في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (الحديث رقم: 6569) وعن أنس أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الميت يسمع خفق النعال (الحديث رقم: 1338) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها باب: عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه (الحديث رقم: 70. 2870) وعن ابن عمر أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الميت يعرض عليه مقعده بالغداة =

= والعشي (الحديث رقم: 1379) ومسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار... (الحديث رقم: 65 ـ 2866).

(2) قال الزيلعي غريب مرفوعًا وهو في الحلية لأبي نعيم من قول سفيان الثوري رواه في ترجمته 42/3.

obeikandl.com

الطاعات، وعن النبي ﷺ «انه كان يخطب فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان فنزل إليهما فأخذهما ووضعهما في حجره على المنبر فقال: صدق الله ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾، رأيت هذين الصبيين فلم أصبر عنهما ثم أخذ في خطبته»[1]. وقيل: إذا أمكنكم الجهاد والهجرة فلا يفتنكم الميل إلى الأموال والأولاد عنهما.

فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾.

﴿ما استطعتم﴾ جهدكم ووسعكم أي: أبذلوا فيها استطاعتكم ﴿واسمعوا﴾ ما توعظون به ﴿وأطيعوا﴾ فيما تأمرون به وتنهون عنه ﴿وأنفقوا﴾ في الوجوه التي وجبت عليكم النفقة فيها ﴿خيرًا لأنفسكم﴾ نصب بمحذوف تقديره ائتوا خيرًا لأنفسكم وافعلوا ما هو خير لها وأنفع. وهذا تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر وبيان لأنّ هذه الأمور خير لأنفسكم من الأموال والأولاد وما أنتم عاكفون عليه من حب الشهوات وزخارف الدنيا.

إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾.

ونكر القرض تلطف في الاستدعاء. ﴿يضاعفه لكم﴾ يكتب لكم بالواحدة عشر أو سبعمائة إلى ما شاء من الزيادة. وقرئ: يضعفه ﴿شكور﴾ مجاز أي: يفعل بكم ما يفعل المبالغ في الشكر من عظيم الثواب. وكذلك ﴿حليم﴾ يفعل بكم ما يفعل من يحلم عن المسيء فلا يعاجلكم بالعقاب مع كثرة ذنوبكم عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة التغابن دفع عنه موت الفجأة»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الطلاق مدنية

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾.

خص النبي ﷺ بالنداء وعم بالخطاب[3] لأنّ النبي إمام أمّته وقدوتهم كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا كيت وكيت، إظهارًا لتقدّمه واعتبارًا لترؤسه وإنه مدره قومه ولسانهم والذي يصدرون عن رأيه ولا يستبدّون بأمر دونه، فكان هو وحده في حكم كلهم وسادًا مسد جميعهم. ومعنى: ﴿إذا طلقتم النساء﴾ إذا أردتم تطليقهنّ وهممتم به على تنزيل المقبل على الأمر المشارف له منزلة الشارع فيه كقوله عليه السلام: «من قتل قتيلاً فله سلبه»[4] ومنه كان الماشي إلى الصلاة والمنتظر لها في حكم المصلي ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ فطلقوهن مستقبلات لعدتهن[5] كقولك: أتيته لليلة بقيت من المحرم أي: مستقبلاً لها، وفي قراءة رسول الله ﷺ: في قبل عدّتهنّ وإذا طلقت المرأة في الطهر المتقدم للقرء الأوّل من أقرائها فقد طلقت مستقبلة لعدّتها، والمراد أن يطلقن في طهر لم يجامعن فيه[6]، ثم يخلين حتى تنقضي عدتهنّ، وهذا أحسن الطلاق وأدخله في السنة وأبعده من الندم. ويدل عليه ما روي عن إبراهيم النخعي أنّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يستحبون

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الإمام يقطع الخطبة للأمر يحدث (الحديث رقم: 1109)، والترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب الحسن والحسين (الحديث رقم: 3774)، والنسائي في كتاب: الجمعة، باب: نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة (الحديث رقم: 1412)، وابن ماجه في كتاب: اللباس، باب: ليس الأحمر للرجال (الحديث رقم: 3600)، وأخرجه ابن حبان في كتاب: الفرائض، باب: ذوي الرحم، (الحديث رقم: 6039)، أخرجه الحاكم في المستدرك 1/287.

(2) الثعلبي والواحدي وابن مردويه في تفاسيرهم زيلعي 6/44.

(3) قال أحمد: وعلى هذا الفرق جرى قوله تعالى إلى حكاية عن فرعون ﴿قال فمن ربكما يا موسى﴾ فانفرد موسى عليه السلام بالنداء؛ لأنه كان أجل الاثنين عليهما السلام وعمهما بالخطاب، وقد تقدم فيه وجه آخر.

(4) تقدم في سورة البقرة.

(5) قال أحمد: حمل القراءتين المستفيضة والشاذة على إن وقت الطلاق هو الوقت الذي تكون العدة مستقبلة بالنسبة إليه، وادّعى أنّ ذلك معنى المستقبل فيها، ونظر اللام فيها باللام في قولك: مؤرخاً لليلة بقيت من المحرّم، وإنما يعني: أن العدة بالحيض، كل ذلك تحامل لمذهب أبي حنيفة في أنّ = الإقراء الحيض، ولا يتم له ذلك، فقد استدل أصحابنا بالقراءة المستفيضة، وأكدوا الدلالة بالشاذة على أن الإقراء الإطهار، ووجه الاستدلال لها على ذلك: أنّ الله تعالى جعل العدة وإن كانت في الأصل مصدراً ظرفاً للطلاق المأمور به، وكثيراً ما تستعمل العرب المصادر ظرفاً، مثل: خفوق النجم ومقدم الحاج، وإذا كانت العدة ظرفاً للطلاق المأمور به وزمانه هو الطهر وفاقاً، فالطهر عدة إذاً، ونظير اللام هنا على التحقيق اللام في قوله: ﴿يا ليتني قدمت لحياتي﴾ وإنما تمنى أن لو عمل عملاً في حياته، وقراءته عليه السلام في قبل عدتهنّ تحقق ذلك. فإن قيل: الشيء جزء منه وداخل فيه، وفي صفة مسح الرأس فاقبل بهما وأدبر، أي: مسح قبل الرأس وهو مقدمها، فحينئذ قبل العدّة جزء منها وهو الطهر.

(6) قال أحمد: الأمر كما نقله وضابط السنة عند مالك أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه واحدة وهي غير معتدّة، والآية تدل لمذهبه على تأويل المتقدمين جميعاً، أما على تأويل الزمخشري وتفسيره المقيد بالاستقبال، فلان الطلاق المأمور به أي المأذون فيه في الآية مقيد بوقت تكون العدّة مستقبلة بالنسبة إليه، وهذا يأبى وقوع الطلاق في أثناء العدة الماضي بعضها، وأما على تأويلنا؛ فلانه مقيد بزمان يكون أولاً للعدّة وقبلاً لها، وهذا يأبى من وقوعه مرادفاً في الطهر الثاني والثالث، غير أن البدعة عند مالك تتفاوت =